﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تأكيدُ بطلانِ الألوهيَّةِ المزعومةِ للأصنام

لَمّا أفْهَمَ الإنْكارُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ بُطْلانَ قَولِهم بكون اللّات والعزّى ومناة الثّالثة الأخرى آلهة، وتخصيصه بالإناث؛ حَصَرَ القَولَ الحَقَّ في هذه الأصنام، فقالَ مُستَأنِفًا: ما هَذِهِ الأصنامُ إلا أسماءٌ لا حَقائِقَ لَها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾: أصلُ (سلط) يدورُ حولَ مَعْنى القوَّةِ والقَهْرِ، ومن ذلكَ السَّلاطَةُ، وهيَ مِنَ التَّسلُّطِ، وهوَ القَهْرُ، ومنهُ سُمّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[2]، وسُمّيَتِ الحُجَّةُ سُلْطانًا؛ لِما يَلْحَقُ مِنَ الهُجومِ عَلى القُلوبِ[3]، ومعنى ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ في الآية: برهان تتعلَّقون به، وحجَّة، وإنزالُها مِنَ اللّه: الإخبارُ بها[4].

2) ﴿تَهۡوَى﴾: الهوى، مَقصورٌ: هَوى النَّفس والعِشقُ، يكون في الخيرِ والشَّرِّ وإرادة النَّفس، والجمعُ الأهواء، ويُقالُ: هوى يَهوي هَويًّا: سقطَ إلى أسفَل، وانهَوى مثلُه، وكأنَّ الَّذي يتَّبعُ هَواهُ يَسقُطُ إلى أسفَل، وخاصَّةً إذا تركَ شَرعَ اللّه، واتَّبع هواه[5]، "والمُرادُ بـ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾: ما لا باعِثَ عَلَيهِ إلّا المَيْلُ الشَّهوانيُّ، دونَ الأدِلَّة"[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59 - 60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 128.
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هوى).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حقيقةِ هذه الأصنام المعبودة

يقولُ تعالى منكِرًا عليهم ما ابتَدَعوه مِن الافتراءِ والكفرِ مِن عبادةِ الأصنامِ وتسميتِها آلهةً: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم إلّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها، اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم، وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وما أنزَلَ اللهُ تعالى بها مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ! ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في عِبادتِهم تلك الأصنامَ إلّا الظَّنَّ، وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدَى مِن رَبِّهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف في الآية:

جُملةُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ استِئنافٌ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِهم مِن أصلِه، بعدَ إبطالِه بما هو مِن لَوازِمِه على مُجاراتِهم فيه؛ لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم[2].

الاستِئنافُ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِ المشركين

بلاغةُ الاحتراس في الآية:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ احتِراسٌ؛ لئلّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نَسبتِهم البَناتِ للهِ، أنَّه إنكارٌ لتَخصيصِهم اللهَ بالبَناتِ، وأنَّ له أولادًا ذُكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصبَّ الإنكارِ على زعْمِهم أنَّها بناتٌ، وليست ببَناتٍ، فيَكونُ كالإنكارِ عليهم في زعْمِهم الملائكةَ بَناتٍ[3].

نفيُ توهُّمِ أنَّ للهِ أولادًا ذُكورًا وإناثًا

سرُّ إيثار النَّفي بـ﴿إِنْ﴾:

آثَرَ البيانُ الحكيمُ النَّفي بـ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾؛ لكون النَّفي بها جاء في سياق الرَّدِّ المنطقيِّ التَّوبيخيِّ الهادئ الَّذي يفنِّدُ شبهةَ المشركين، ويبطلها.

نفيُ تفنيدِ شبهة المشركين بأسلوبٍ هادئ لا زاجر

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 528.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107.

نكتةُ القصر في الآية:

لا تتعدّى أصنامهم أن تكون أسماءَ لا حقائقَ لها

القَصْرُ في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: هي أسماءٌ لا حقائقُ عاقلةٌ متصرِّفةٌ - كما تَزعُمون - وليس القصْرُ حَقيقيًّا؛ لأنَّ لِهاتِه الأصنامِ مُسمَّياتٍ، وهي الحِجارةُ أو البيوتُ الَّتي يَقصِدونها بالعِبادةِ، ويَجعَلون لها سَدَنةً[1]، وهذا على سبيلِ المبالغة والتَّجوُّز، يقال لتحقير إنسان: ما زيدٌ إلّا اسمٌ، وما الملكُ إلّا اسمٌ؛ إذا لم يكن مشتملًا على صفةٍ تُعتبَرُ في الكلام بين النّاس، ويؤيِّد هذا القول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: 40]، أي: ما هذه الأصنام إلّا أسماء[2].

نكتة تنكير ﴿أَسْمَآءٌ﴾:

الأصنامُ محقَّرةٌ لا تحملُ مضمونًا حقيقيًّا، ولا تدلُّ على ذاتٍ لها حقُّ الألوهيَّة

تنكيرُ ﴿أَسْمَآءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ يفيدُ التَّحقيرَ لها، والتَّقليلَ من شأنها، فهي مجرَّدُ "أسماء محضة ليسَ تحتَها - ممّا تنبئُ هي عنهُ من معنى الألوهيَّة - شيءٌ ما أصلًا"[3]، ولذا لا تستحقُّ التَّعريفَ، ولو عرَّفها؛ لأوْهَمَ أنَّها معهودةٌ معروفة في العقل أو الشَّريعة.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَسْمَآءٌ﴾، وفائدة جملة الصِّفة ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾:

مسمّياتهم لا حقائقَ لها ولا دليلَ عليها من نقلٍ أو عقلٍ

لم يقلِ البيانُ الحكيم: (إن هي إلا ذوات أو إناث سميّتموها)، وإنَّما عبَّر بلفظ أسماء؛ للإشارة إلى أنَّها أسماءٌ لا مسمّى لها؛ فإنَّها ليستْ معبوداتٍ حقيقة[4]، فما ادَّعيتم أيُّها المشركون لها من الإلهيَّة ليس لها من ذلك إلّا الأسماء[5].

وأكَّد القرآنُ هذا المعنى بجملة الصِّفة، وهي: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ الَّتي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107 - 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

دلَّت على أنَّها أسماء ابتدعوا تسميتها؛ لمجرَّد الهوى دون دليلٍ نقليٍّ ولا وجهٍ عقليٍّ[1].

لطيفةُ نسبة التَّسمية إليهم:

كلُّ مَن يُطلِقُ أسماءً لا دليلَ عليها؛ فهو كالمبتدئ الواضعِ لها

نسبَ البيانُ القرآنيُّ تسميةَ الأصنام إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ مع أنَّ هذه الأسامي لأصنامهم كانت قبلهم؛ لأنَّ كلَّ مَن يُطلقُ هذه الألفاظ؛ فهو كالمبتدئ الواضعِ لها؛ وذلك لأنَّ الواضعَ الأوَّلَ لهذه الأسماء لَمّا لم يكن واضعًا لها بدليلٍ نقليٍّ أو عقليٍّ لم يجزِ اتِّباعه.

بلاغة التَّوكيد بالضَّمير ﴿أَنتُمْ﴾:

تأكيدُ نسبةِ التَّسمية إلى المشركين لا إلى آبائهم فقط

لمّا قال سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾؛ كأنَّ المشركين قالوا: هذه ليستْ أسماءً وضعناها نحن، وإنَّما هي كسائر الأسماء تلقّيناها ممَّن قبلنا من آبائنا، فجاءَ بضمير الفصل ﴿أَنتُمْ﴾؛ للتَّأكيد على نسبةِ التَّسمية إليهم أيضًا لا إلى آبائهم فقط، ولاجتثاثِ قولهم من أصله، فهي من اختراعهم واختراعِ آبائهم لا غير، بمجرَّد الهوى لم يروا منها آيةً، ولا كلَّمتهم قطُّ كلمة يعتدّونها[2].

نكتةُ فصل الآية عمّا سبقها:

تعليلُ كون أصنامهم أسماءً لا حقائقَ لها

جُملةُ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ تعليلٌ لمعْنى القَصْرِ بطَريقةِ الاكتفاءِ؛ لأنَّ كونَها لا حَقائقَ لها في عالَمِ الشَّهادةِ أمْرٌ مَحسوسٌ؛ إذ ليستْ إلّا حِجارةً، وأمّا كَونُها لا حَقائقَ لها مِن عالَمِ الغَيبِ؛ فلأنَّ عالَمَ الغَيبِ لا طَريقَ إلى إثباتِ ما يَحتويه إلّا بإعلامٍ مِن عالِمِ الغَيبِ سُبحانَه، أو بدليلِ العقْلِ - فيما للعقلِ فيه إدراكٌ - كدَلالةِ العالَمِ على وُجودِ الصّانعِ وبعْضِ صِفاتِه، واللّهُ لم يُخبِرْ أحدًا مِن رُسلِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

بأنَّ للأصنامِ أرواحًا أو مَلائكةً، مِثلَ ما أخبَرَ عن حَقائقِ الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ[1].

سرُّ النَّفي بـ﴿مَآ﴾:

انتفاءُ البراهين يُبطل التَّسميات

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ ﴿مَآ﴾، في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لأنَّها أصرحُ أدواتِ النَّفي وأشدُّها قطعًا، فنفت أنْ يكون اللّٰهُ أنزلَ، أو أيَّد، أو شرَّع لهذه الأسماء المعبودة أيَّ برهانٍ أو دليل؛ وذلك أنَّه لمّا عُلِمَ بما سبقَ أنَّ اللّٰهَ تعالى لم يأمرهم بشيءٍ ممّا افتروه عليه؛ صرَّح به نافيًا أن يدلَّ على ما وسموه به دليلٌ[2].

دلالةُ الفعل الماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

نفيُ أيِّ أصلٍ دينيٍّ سابقٍ لهذه العقيدة الباطلة

آثرَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿أَنزَلَ﴾؛ للدَّلالة على النَّفي القطعيِّ لِما مضى، فالنَّفيُ لا يخصُّ الحالَ فقط، بل يشملُ الزَّمن الماضي كلَّه، أي: لم يُنزِل اللّٰهُ من قبل، ولا في أيِّ وقتٍ سابق أيَّ حُجَّةٍ، أو وحيٍ يسوِّغُ عبادتكم لهذه الأصنام.

بلاغةُ التَّشبيه في الفعل ﴿أَنزَلَ﴾:

الأصنامُ أسماءٌ سمّوها ليس لها أيُّ أصلٍ عُلوي

السُّلطانُ: الحُجَّةُ، وعُبِّرَ عن الإخبارِ الموحَى به بفِعلِ ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ يَرِدُ مِن العالَمِ العُلويِّ، مِن اللّٰهِ تعالى، وهذا كِنايةٌ عن انتفاءِ أنْ تكونَ عليها حُجَّةٌ؛ لأنَّ وُجودَ الحُجَّةِ يَستلزِمُ ظُهورَها[3]، أي: استعمال ﴿أَنزَلَ﴾ هنا فيه تشبيهٌ ضمنيٌّ للحُجَّةِ الصَّحيحة بالوحي السَّماوي، أي: إن كانت هناك حُجَّةٌ لعبادةِ الأصنام؛ لوجبَ أنْ تُنزَّلَ من عند اللّٰهِ كما يُنزَّلُ الوحي، لكنَّها لم تُنزَل، إذًا لا حُجَّة فيها، فكلُّ ما لم يقرِّره اللّٰهُ، فلا قوَّةَ فيه ولا سلطان له؛ لأنَّه لا حقيقةَ له.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108.

وجهُ إظهار اسم الله الأعظم:

في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ عبَّر بالاسم الأعظم الجامعِ لصفاتِ الجلال والجمال والكمال؛ للمبالغةِ في نفي أيِّ حجَّةٍ للمشركين في اتِّخاذهم هذه الأصنام شركاءَ لله.

المبالغةُ في نفي أيِّ حجَّةٍ للمشركين

معنى الباء في القيد ﴿بِهَا﴾ وعود الضَّمير فيه:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ بمعنى المصاحبة، كقول القائل: ارتحل بأهله ومتاعه، أي: مع، فالمعنى: ما أنزلَ اللهُ سلطانًا معها، أي: مقترنًا بها يؤيِّدها[1]، فلا توجد معها أيُّ حجَّةٍ، فهي منفصلةٌ عن الوحي والدَّليل كلَّ الانفصال، والضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ يعودُ على الأسماء المعبودة، الَّتي ذُكِرتْ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، ويجوز أن تكون للاستعلاء المعنويِّ[2]، والمعنى: ما أنزل الله تعالى عليها من حجَّة أو برهان.

نفيُ أيِّ ارتباطٍ بين هذه الأسماء والوحي الإلهيِّ

معنى حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ للتَّوكيد ودلالتها التَّنصيصُ على عموم النَّفي؛ إذ أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ بها عمومَ نفي إنزالِ السُّلطانِ واستغراقه[3]، فلا سلطانَ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا، أنزلهُ اللهُ لتأييد هذه الأوثان.

تأكيدُ نفي إنزالِ السُّلطانِ لهذه التَّسميات الباطلة

دلالة لفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ منكَّرًا:

آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لاتِّساع دلالته؛ فمن معانيه الحجَّةُ القاهرة، والحجَّة الَّتي يُستضاءُ بها في الأمور، والبرهانُ والدَّليلُ،

نفيُ أيِّ سلطانٍ لهذه الأسماء مبالغةٌ في تأكيدِ بطلانها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 251.
(2) فخر الدين قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير الجلالين، ص: 1864.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

والقوَّةُ والقهرُ والغلبةُ والنُّفوذُ والسَّيطرة[1]، ومِن ثَمَّ فإنَّ نفيَ أيِّ سلطانٍ لهذه الأسماء - الَّتي اخترعوها - مبالغةٌ في تأكيدِ بطلانها، كما أنَّ هذا اللَّفظ يتناسبُ مع السّياق الَّذي يبيِّن كونها مجرَّد ألفاظٍ لا حقائقَ لها.

ونكَّرَ البيانُ الإلهيُّ مفردة ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ لكونها جاءتْ نكرةً في سياقِ النَّفي، أي: ليس لهذه الأسماء أيَّ سلطانٍ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا.

سرُّ تكرار النَّفي بـ﴿إن﴾:

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿إن﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ ليتكاملَ تأكيدُ الإبطالِ لشُبهِ المشركين فيما يتعلَّقُ بآلهتهم المزعومة في أيِّ وقت من الأوقات، وأيِّ حالٍ من الأحوال[2] بالأسلوب ذاته، فقد ركَّز في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ﴾ على بُطلان المسمَّيات نفسها، فهي لا تتجاوزُ كونها ألفاظًا اخترعوها لا مسمَّيات لها في الواقع، وركَّز في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ على بُطلانِ المسلكِ والمنهج، أي: إنَّ الَّذي يحكمُ عبادتكم لهذه الأسماء هو الهوى والظَّنُّ، لا العقل ولا الوحي.

التَّكاملُ في تأكيد إبطالِ شُبَهِ المشركين في أيِّ وقتٍ من الأوقات

إذًا فالتَّكرارُ ليس تكرارًا شكليًّا، بل هو تصعيدٌ في التَّوبيخ وتوسيعٌ في التَّفنيد، فاستعمال الأسلوب نفسه في عبارتين في آية واحدة يُعمِّقُ الإيقاعَ البيانيَّ، ويجعلُ التَّفنيدَ متكرِّرًا بنغمةٍ واحدةٍ تعمِّقُ أثرَ الإنكارِ، وتثبِّتُ المعنى في الذِّهن.

بلاغةُ الالتفات بالاستئناف في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ التفتَ البيانُ الحكيمُ

تعدادُ قبائحِهم اقتضَى الإعراضَ عنهم تحقيرًا لشأنِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلط).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

عن خِطابِ المشركينَ، الَّذي كان ابتِداؤُه مِن أوَّلِ السّورةِ، إلى الغَيبةِ عنهم؛ نعيًا عليهم بعدَ مجيءِ الآياتِ البيِّنات[1]، وللإيذانِ بأنَّ تَعدادَ قَبائحِهم اقتضَى الإعراضَ عنهم تَحقيرًا لشأنِهم، وحِكايةَ جِناياتِهم لغيرِهم، بأنَّهم ما يتَّبعونَ فيما ذُكِرَ من التَّسميةِ والعملِ بموجِبها إلّا توهُّم أنَّ ما هُم عليهِ حقٌّ توهُّمًا باطلًا، وما تشتهيهِ أنفسُهم الأمّارةُ بالسّوءِ[2]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، فضميرُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ عائدٌ على الَّذين كان الخطابُ موجَّهًا إليهم، وكأنَّه لَمّا نفى أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ على الخَصائصِ، الَّتي يَزعُمونها لأصنامِهم، أو على أنَّ اللّهَ سمّاهم بتلك الأسماءِ؛ تبادر سؤالٌ عن سببِ ذلك، فأعقبَ سبحانه بإثباتِ أنَّهم استَنَدوا فيما يَزعُمونَه إلى الأوهامِ، وما تُحِبُّه نُفوسُهم مِن عِبادةِ الأصنامِ ومَحبَّةِ سَدَنتِها ومَواكبِ زيارتِها، وغُرورِهم بأنَّها تَسعَى في الوساطةِ لهم عندَ اللّهِ تعالى بما يَرغَبونَه في حَياتِهم، فتلك أوهامٌ وأمانيُّ مَحبوبةٌ لهم يَعيشون في غُرورِها[3].

وجهُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ دلالة وصيغة:

تصويرُ اجتماعِهم على الانقيادِ الأعمى والمستمرِّ لأوهامٍ باطلة

التَّعبيرُ بالاتِّباعِ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الانقيادِ الأعمى والذُّلِّ، وكأنَّهم يسيرون خلفَ الظَّنِّ والهوى، ويأتمرون به، ويقتفون أثره، بلا بصيرةٍ ولا نظر؛ لأنَّ أصلَ الكلمةِ يدلُّ على التُّلوِّ والقفْوِ، وفي إيثارِ صيغة التَّضعيف ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ دون (يتْبَعون)؛ للدَّلالة إلى أنَّهم يبذلون الجهدَ في اتِّباعهم للظَّنِّ الفاسد وهوى النَّفس، والمعنى: فيتَّبَعون بكلِّ عزائمهم؛ وذلك لأنَّ الاتِّباعَ جاءَ على صيغة الافتعالِ الَّتي تدلُّ على شدَّةِ الطَّلبِ والاجتهادِ في الطَّلب، والمبالغةِ في الفعل، وأمّا التَّعبيرُ بصيغة المضارع؛ فللدَّلالةِ على أنَّهم سيَستَمِرّونَ على اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهواهُ نُفوسُهم، وذلك يدُلُّ على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 92.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109.

أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبْلُ؛ بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فحواهُ[1]، وفيه تصويرٌ بديعٌ لحالة الانقياد التّامِّ لأوهامٍ لا تقودُ إلّا إلى الباطل، وأمّا صيغةُ الجمع؛ فللدَّلالة على تعاونهم على اتِّباع الباطل وهوى النَّفس.

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

قصْرُ الاتِّباع على الوهم والأهواءِ الشَّخصيَّة

أفادَ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ معنى الحصر؛ لأنَّه سُبِقَ بنفي، والمعنى: لا يتَّبعون وحيًا، ولا عقلًا راجحًا، ولا برهانًا موحًى به، وإنَّما يتَّبعون الظُّنونَ والتَّخمينات والأهواء الشَّخصيَّة، فاتِّباعهم محصورٌ في الضَّلال بين الوهم، وهوى النَّفس.

دلالة تعريف ﴿ٱلظَّنَّ﴾:

المعهودُ عنهم هو الظَّنُّ المعلولُ في الله وصفاته وأحكامه

(الـ) في ﴿ٱلظَّنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ عهديَّة، والمقصودُ هو الاعتقادُ الباطل، والظَّنُّ المعلولُ في الله وصفاتِه وأحكامه[2]، لا أصلَ الظَّنِّ، وهو الاعتِقادُ غيرُ الجازِمِ، بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ عليه[3]، ولأنَّه جاء في سياق الاعتقادِ الَّذي يُشترَطُ فيه اليقين، لا يجوزُ أن يُبنى على الظَّنِّ؛ لأنَّ اليقينَ لا يتعذَّر، وإلى هذا أشارَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: اتَّبعوا الظَّنَّ، وقد أمكنهم الأخذ باليقين[4].

توجيه العطف بالواو:

جمعُ الكافرين بين الظَّنِّ الباطل واتِّباع الهوى دليلٌ على شدَّة ضلالهم

عطْفُ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على ﴿ٱلظَّنَّ﴾ عطْفُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: الظَّنُّ الَّذي يَبعَثُهم على اتِّباعِه أنَّه موافقٌ لِهَواهم وإلْفِهم لا الظَّنُّ الموافق للحقِّ[5]، كما دلَّ العطفُ على اجتماعِ ما تهواه أنفسهم، وظنِّهم الباطل في كونهما مقصورًا عليه، فمناطُ الذَّمِّ في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109 - 110.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 251.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 110.

هذه الآية، هو قصرُ اتِّباعهم على ظنِّهم الباطل، وما تهواهُ أنفسهم، والعطفُ يشيرُ كذلك إلى أنَّهم جمعوا بين اتِّباع الظَّنِّ الباطل في الاعتقاد، واتِّباع هوى النَّفس في السُّلوك والعمل والعبادة[1]، وهذا يدلُّ على شدَّة ضلالهم.

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا تَهۡوَى﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهۡوَى﴾ تحتملُ وجهين: الأوَّل: مصدريَّة، والتَّقدير: إن يتَّبعون إلّا الظَّنَّ وهوى الأنفس، والعدول عن صريح المصدر إلى الفعل برغم ما في ذلك من زيادة وتطويل؛ لكون الفعل ﴿تَهۡوَى﴾ يعطي قوَّةً في المعنى، ويجعله أنسبَ وأقرب؛ ليدلَّ على كلِّ هوى، فهو مع دلالته على تحقُّق المصدر يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوث والاستقبال، بما يشيرُ إلى أنَّهم من شدَّة كفرهم ليسوا بثابتين على ضلالٍ واحد، وما هوتْ أنفسهم في الماضي شيئًا من أنواع العبادة، فالتزموا به، وداموا عليه، بل كلَّ يومٍ هم يستخرجون عبادةً، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم؛ أتوا بغيرها غدًا، ويغيّرون وضعَ عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم، والثّاني: أنَّها موصولة، والتَّقدير: والَّذي تشتهيه أنفسهم، والفرقُ بين المصدريَّة والموصولة أنَّ المُتَّبَعَ على الأوَّل الهوى، وعلى الثّاني مُقْتَضَى الهَوَى[2].

من شدَّة كفر المشركين وزيغهم لم يثبتوا على ضلالٍ واحد

دلالة تعريف ﴿ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ وجمعها:

تعريفُ ﴿ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ إمّا عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وما تَهواهُ أنفُسُهم الأمّارة بالسوء[3]، أو للعهد، أو للجنسِ؛ والنَّفسُ من حيث هي إنَّما تهوى غير الأفضل؛ لأنَّها مجبولةٌ على حبِّ الملاذِّ، ولا تشتهي أبدًا إلّا بما يهوي بها عن

اتِّباعُ المشركين لهوى النَّفس أو أنفسهم موجبٌ لذمِّهم

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14701.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 110.

غاية أوجها إلى أسفل حضيضها، وإنَّما يسوقها إلى حسنِ العاقبة والمعالي العقلُ[1].

وقد عبَّر عن ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾ بلفظ الجمع - مع أنَّهم لا يتَّبعون ما تهواه كلُّ نفسٍ، فإنَّ من النُّفوسِ ما لا تهوى ما تهواه غيرها - لكونه من بابِ مقابلة الجمع بالجمع، معناه اتَّبع كلُّ واحد منهم ما تهواهُ نفسه، يُقال: خرجَ النّاسُ بأهليهم، أي: كلُّ واحدٍ بأهله لا كلُّ واحدٍ بأهل الجمع[2].

اتَّبع كلُّ واحد من المشركين ما تهواهُ نفسه هو لا ما تهواه الأنفس

بلاغةُ الكنايةِ في جملة العطف ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾:

في جملة العطْفِ، وهي: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ كِنايةٌ عن الخطَأِ باعتبارِ لُزومِه له غالبًا، ومَناطُ الذَّمِّ في هذه الآيةِ هو قصْرُ اتِّباع المشركين على ما تَهواهُ أنفُسُهم[3]، وكأنَّها تقول: ولا يُحرِّكهم برهان، ولا يضبطهم وحيٌ، بل فقط ما تميلُ إليه أنفسهم من رغباتٍ وميول فاسدة، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والتَّقريع من التَّصريح.

لا يضبط المشركين وحيٌ، ولا يقودهم برهانٌ، وإنَّما ميلُ النَّفس

وجه التَّعبير بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ إمّا حاليَّة، والجملةُ حالٌ من فاعلِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، وهي حالٌ مُقرِّرةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِهم، أي: يَستمِرّون على اتِّباعِ الظَّنِّ والهَوى في حالِ أنَّ اللّهَ أرسَلَ إليهم رسولًا بالهُدى[4]، أو اعتراضيَّةٌ، وهي تَوبيخٌ لهم، والَّذي هم عليه باطلٌ، أي: يَفعَلونَ هذه القبائحَ، والهُدى قد جاءَهُم، فكانوا أولى مَن يَقبَلُه، ويَترُكُ عِبادةَ مَن لا يُجدي عِبادتُه[5]، وسواءٌ كانت حاليَّة أو اعتراضيَّة، ففيها تأكيدٌ

زيادةُ تقبيحِ حالِ من اتَّبعوا الظَّنَّ وهوى النَّفس، وقد جاءهم الرَّسول بالكتابِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 58.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 109 - 110.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 18.

لبطلانِ اتِّباعِ الظَّنِّ وهوى النَّفسِ، وزيادةُ تقبيحٍ لحالِهم، فإنَّ اتِّباعهما - من أيِّ شخصٍ كان - قبيحٌ، وممَّن هداهُ اللهُ تعالى - بإرسال الرَّسول ﷺ وإنزالِ الكتابِ - أقبحُ[1].

بلاغةُ التَّوكيد بلام القسم و(قد):

المبالغةُ في التَّعجيب من استمرارِ الكافرين على ضلالهم

لامُ القَسَمِ وحرفُ التَّحقيقِ والتَّوكيد (قد) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، يفيدان تأكيدَ الخبَرِ؛ للمُبالَغةِ فيما يَتضمَّنُه مِن التَّعجيبِ مِن حالِهم، كأنَّ المُخاطَبَ يشُكُّ في أنَّه جاءَهم ما فيه هُدًى مُقنِعٌ لهم مِن جهةِ استمرارِهم على ضَلالِهم استمرارًا لا يُظَنُّ مِثلُه بعاقلٍ[2].

سرُّ إيثار فعل المجيء ماضيًا مجموعًا:

اتِّباعُ الظَّنِّ المعلولِ والهوى المضلِّ ممَّن تحقَّقَ مجيءُ الهدى إليه أقبح

عبَّر البيانُ الحكيمُ بلفظِ المجيء في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ دون لفظ (أتاهم)؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وأشمَلُ من الإتيان، فهو تمامُ الإتيان، ويُعبَّرُ بالمجيء كذلك عن القصدِ بالأمرِ والتَّدبير[3]، وهو بذلك أنسب من الإتيان؛ لكون الفعل من الله تعالى المحسن إليهم، ثمَّ إنَّ "الإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، أمّا المجيء؛ فيقال اعتبارًا بالحصول"[4]، ومجيءُ هدى الله واقعٌ محقَّق.

يرسِّخ ذلك صوغه ماضيًا دون المضارع؛ لأنَّه سُبِقَ بحرف التَّحقيق (قد)؛ ليدلَّ معه على تحقُّقِ وقوعِه، وقوعِ مجيء الهدى من الله بإرسالِ الرَّسول ﷺ وإنزالِ الكتابِ، وفي هذا زيادةُ تقبيحٍ لحالِهم، فإنَّ اتِّباعَ الظَّنِّ المعلولِ والهوى المضلِّ من أيِّ شخصٍ قبيحٌ، وممَّن تحقَّق مجيء الهدى إليه أقبح.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 361.
(4) الراغب، المفردات: (جاء).

معنى حرف الجر ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، تفيدُ أنَّ الهدى صادرٌ ومبتدأ من عند الله تعالى لا من عند غيره، فمصدره إلهيٌّ خالص، لا هوى فيه ولا افتراء، ولذلك فهو حُجَّةٌ قاطعة عليهم في إنكارهم وتكذيبهم، وزيادةٌ في التَّعجيب من استمرار ضلالهم.

إلهيَّةُ مصدر الهدى حجَّةٌ على المكذِّبين وتعجيبٌ من حالهم

نكتةُ التَّعبير عن الجلالة بلفظ الرُّبوبيَّة:

التَّعبيرُ عن اسم الجَلالةِ بعُنوانِ ﴿رَّبِّهِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ لزيادةِ التَّعجيبِ مِن تَصامُمِهم عن سَماعِ الهُدى، مع أنَّه من المحسنِ إليهم، والَّذي تجبُ طاعتُه، فكان ضَلالُهم مَخلوطًا بالعِصيانِ والتَّمرُّدِ على خالِقِهم[1].

ضَلالٌ مَخلوطٌ بالعِصيانِ والتَّمرُّدِ على المحسن الَّذي تجبُ طاعته

دلالةُ تعريف لفظ الرُّبوبيَّة بالإضافة إلى الضَّمير:

في قوله: ﴿رَّبِّهِمُ﴾ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير العائد إلى الكافرين، الّذين لا يتَّبعون إلّا الظَّنَّ الباطل وهوى النَّفس، وفي هذا تبكيتٌ للمكذِّبين؛ لأنَّهم أعرضوا عن هدًى صدرَ عن الجهةِ الَّتي لا يُعذرُ في الإعراض عنها، فهي الرَّبُّ المحسنُ إليهم رغمَ إعراضهم.

التَّبكيتُ جزاءُ المكذِّبين المعرضين عن الهدى الصّادر عن المحسن إليهم

دلالة تعريف ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾:

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على معْنى الكَمالِ، أي: الهُدى الواضحُ[2]، والمعنى: ولقد جاءهم من ربِّهم المحسن إليهم الهدى الكامل في بابه، إلى الدّين الحقِّ النّاطق بالكتاب المعجز النّاطق بالصّواب على لسان الرَّسول ﷺ والرَّأيُ يقتضي أنَّ مَن رأى الهدى؛ تَبعهُ، ولو أتاهُ به عدوُّه، فكيف إذا أتاه به من هو أفضلُ منه، من عند مَن إحسانُه لم ينقطعْ عنه قط[3] ؟.

إعراضُ الكافرين عن الهدى الكامل الواضحِ دليلٌ على شدَّة ضلالهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 61.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"